دور نماذج المسيري التفسيرية في منهجية تحليل الظاهرة السياسية

عمرو نور الدين*

ملخص

تعالج هذه الدراسة دور النماذج التحليلية عند المفكر المصري عبد الوهاب المسيري في بناء منهاجية تحليل الظاهرة السياسية، حيث نتعرف على نماذجه التحليلية ونرصد الاختلافات الأساسية والسمات المشتركة بينها وبين التحليل البنيوي والصورة المجازية اللغوية، هذا بالإضافة إلى ذِكر السمات التحليلية التي يتسم به النموذج، وطريقة صياغته وتفاعله مع الواقع. كما تعرض الدراسة النماذج التحليلية والتفسيرية الأساسية الثلاثة عند المسيري كحالة تطبيقية من منظور سياسي، وتتطرق إلى المتتالية النماذجية لكل من هذه النماذج، كما تبين الوحدة المعرفية الكامنة خلفها والجامعة بينها.

استخدم المفكر المصري الراحل الدكتور عبد الوهاب المسيري النماذج كأدوات في تحليله لكافة الظواهر المحيطة به، ومن بين هذه الظواهر الظاهرة السياسية، حيث قدم المسيري تحليلات عميقة ربطت الظاهرة السياسية (الصهيونية) بجذورها المعرفية والوجودية. وقد استطاع المسيري (في ذات الوقت) وعلى مدار رحلته الفكرية أن يطور هذه النماذج ويكثفها لتناسب الواقع المركب ولتبقى منفتحة عليه؛ بحيث تدخل في علاقة جدلية مستمرة مع الواقع المتغير فلا تنعزل عنه.

لا شك أننا في تحليلنا للظاهرة السياسية بحاجة لهذه الثنائية التي يراعيها النموذج كآداة للتحليل، حيث يربط النموذج الظاهرة بجذورها الفلسفية العميقة (المعرفية والوجودية)، كما يربطها في ذات الوقت بالواقع المتغير باستمرار والمحيط بها من كل الجوانب.

* باحث بقسم العلوم السياسية، كلية التجارة وإدارة الأعمال، جـــامعة حلـوان

amr.n.eldin.86@facebook.com

لذلك فإننا من هذا المنطلق سنسعى من خلال هذا المبحث للتعريف بالنموذج، وتوضيح الفرق بينه وبين المفاهيم التحليلية الأخرى كمفهوم البنية على سبيل المثال، كما سنسعى إلى إبراز أوجه التشابه بين النموذج والصورة المجازية، هذا بالإضافة إلى بيان السمات التحليلية للنموذج، وكيف تتم عملية صياغته وتشكله بحيث لا ينفصل عن الواقع ولا يلتصق به تمامًا، كما نستعرض النماذج التفسيرية الثلاثة التي أقام عليها المسيري دعائم مشروعه الفكري، وهي: «نموذج الجماعات الوظيفية» و«نموذج الحلولية الكمونية»، و«نموذج العلمانية الشاملة». وبناء على ما سبق ينقسم هذا المبحث إلى: أولًا: التعريف بالنموذج وسماته التحليلية وطريقة صياغته. ثانيًا: النماذج كحالة تطبيقية عند المسيري (الجماعة الوظيفية – الحلولية الكمونية – العلمانية الشاملة).

أولًا – التعريف بالنموذج وسماته التحليلية وطريقة صياغته

ينقسم هذا الجزء إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول يعرف بالنموذج، والقسم الثاني يتناول السمات التحليلية له، والقسم الثالث يوضح طريقة صياغته.

التعريف بالنموذج

يتشابه النموذج كآداة تحليلية مع بعض الأدوات التحليلية الأخرى في االعلوم الاجتماعية والأدب، كما أنه يختلف في الوقت ذاته معها، وسنوضح معالم هذا التشابه والاختلاف فيما يلي:

(أ) النموذج والبنية

يُعَرِّف المسيري «النموذج» على أنه: «بنية تصورية أو خريطة معرفية يجردها عقل الإنسان (بشكل واع أو غير واع) من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق (الموضوعية)، فهو يستبعد بعضها بحسبانها غير دالة (من وجهة نظره) ويستبقي البعض الآخر. ثم يربط بينها وينسقها تنسيقًا خاصًا، ويجرد منها نمطًا عامًا»[1]. وهنا يجب أن نفرق بين فكرة "النموذج" كما يُعَرِّفه المسيري وبين فكرة "البنية" في العلوم الاجتماعية، وذلك وفق الآتي:

1) البنية: يمكن القول أن البنية هي اتجاه منهجي استخدمه الباحثون في العديد من الحقول المعرفية كالنقد الأدبي والعلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا، ويستمد أصوله من كتابات عالم اللغة فردنان دي سوسير، وتوصف البنيوية (كما يراها البنيويون) باعتبارها محاولة لشرح الظروف الموضوعية التي تشكل كافة العلاقات الاجتماعية، لذلك تدعي البنيوية لنفسها أنها علمًا موضوعيًا[2].

تعد البنيوية طريقة في التحليل الفكري تنظر إلى الظاهرة باعتبارها تركيبة علائقية مستقلة

(1) د.عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور الثمر: مرجع سابق، ص366.

(2) أندرو إدجار، بيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية، مرجع سابق، ص135 – 136.

ومكتفية بذاتها تستمد عناصرها ووجودها من علاقاتها البينية وتناقضاتها داخل تلك التركيبة وليس من علاقتها بالعالم الخارجي، وتقوم البنية في أساسها على علاقات عامة مجردة بل نماذج رياضية يتم رصد وجودها في كل الظواهر، وتصبح البنية بذلك متجاوزة للزمان والمكان، وهو ما يؤدي إلى فقدان الظاهرة لخصوصيتها وتفردها فتنفصل عن الواقع وتصبح مطلقة(1).

ويوجه للبنيوية العديد من الانتقادات أبرزها؛ أنها تفسر العلاقات في إطار بناء ثابت له حدود صارمة وبالتالي تتجاهل حقيقة التغير، التي بدورها تخضع لأحد أمرين(2): أحدهما أنه يتعين أن تكون عملية التغير صفة ذاتية يتصف بها البناء (الموضوعي!)، وهو ما يعني أن مفهوم البناء هو مفهوم مشكَّل في حد ذاته. والآخر أن حقيقة التغير تأتي من خارج البناء، ومن ثم لا تكون البنية شرطًا تتشكل على أساسه العلاقات الاجتماعية وتحديد المعنى، وإنما يخضع البناء في حد ذاته لأسباب خارجية أخرى.

2) النموذج: يؤكد المسيري من ناحية أخرى على أن النموذج أداة ثورية، لا ترصد ما هو قائم وحسب (كما يفعل التحليل البنيوي) وإنما ترصد ما هو كامن أيضًا، لذلك فهو يفسر الأمر الواقع دون أن يكرس له، وفي نفس الوقت يسعى لتغييره من خلال رصد ما هو كامن فيه(3). فالفارق بين النموذج والبنية – كما يؤكد المسيري – يكمن في أن النموذج يؤكد الجانب الذاتي (إدراك شبكة العلاقات)، أما البنية فهي تؤكد على الجانب الموضوعي (شبكة العلاقات ذاتها)(4).

على عكس البنية (الموضوعية) يؤكد المسيري على أنه ليس للنموذج وجود إمبريقي في حد ذاته، فهو عبارة عن «بنية تصورية» أو «خريطة معرفية» يجردها الباحث من خلال دراسته للظاهرة أو النص، ويحرص الباحث أثناء تلك العملية على عدم اللجوء إلى مستويات عليا من التجريد، بحيث يتمكن من تجاوز الظاهرة أو النص (زمانًا ومكانًا) دون أن يفقد التحليل صلته بالواقع.

النماذج التفسيرية الثلاثة التي أقام عليها المسيري دعائم مشروعه الفكري، وهي: نموذج الجماعات الوظيفية ونموذج الحلولية الكمونية.

وقد حاول المسيري تحجيم اللازمنية النسبية الموجودة في النموذج بتطويره لمفهوم "المتتالية النماذجية" وهي عبارة عن رؤية تصورية نماذجية تعاقبية يجردها الباحث من خلال ملاحظته للظواهر في نموها وتطورها عبر حلقات مختلفة تتحقق عبر الزمان(5).

(1) د.عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان، مرجع سابق، ص305.

(2) أندرو إدجار، بيتر سيدجويك، مرجع سابق، ص137.

(3) د.عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، مرجع سابق، ص366.

(4) د.عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية، المجلد الثاني، مرجع سابق، ص 452.

(5) د.عبد الوهاب المسيري، دفاعًا عن الإنسان، مرجع سابق، ص305.

وصف المسيري للنموذج بالبنية التصورية أو الخريطة المعرفية يعني أن النموذج ليس له وجود مادي، فهو عبارة عن صورة إدراكية متبلورة في ذهن الإنسان يستخدمها في تفسير الواقع.

وعلى عكس مفهوم "المتتالية النماذجية" طور المسيري مفهوم "اللحظة النماذجية" وهو مفهوم يؤكد على الاختلاف الجوهري بين الواقع والنموذج، فالنموذج لا يتحقق في الواقع بصورة كلية وإنما تظل هناك مسافة، ويقصد المسيري باللحظة النماذجية اللحظة التي يقترب فيها النموذج من التحقق الكامل في الواقع وهي لحظة نادرة كما يقول(1).

النموذج والصورة المجازية

إن وصف المسيري للنموذج بـ«البنية التصورية» أو «الخريطة المعرفية» يعني أن النموذج ليس له وجود مادي، فهو عبارة عن صورة إدراكية متبلورة في ذهن الإنسان يستخدمها في تفسير الواقع، لذلك فإننا عندما نتحدث عن النموذج فإن ذلك لا يعني أننا نتحدث عن الواقع في حد ذاته، بل الواقع كما يدركه صاحب النموذج، والنموذج بهذا المعنى يشبه إلى حد كبير الصورة المجازية اللغوية فكلاهما ليس له وجود مادي لكنه يستخدم في تفسير الواقع رغم أنه لا يعكسه بشكل فوتوغرافي مباشر(2).

تشبه علاقة النموذج بالظاهرة تمامًا العلاقة بين الصورة المجازية والواقع، فكلاهما يتكون من جانبين؛ جانب معنوي ومجرد يُمثل عالم الأفكار، وجانب آخر محسوس ومتعيّن يُمثل عالم المادة، ونحن نستخدم الصورة المجازية والنموذج للتقريب بين عالم الأفكار المجرد وعالم الأشياء المادي المتعين، بحيث يصير المفهوم المجرد أكثر تعينًا واقترابًا من الواقع، ويصير الواقع المادي المتناثر أكثر تجردًا وتبلورًا في الذهن(3).

يؤكد المسيري على أن كل نموذج سواء كان إدراكيًا أو تحليليًا أو تفسيريًا أو معرفيًا يترجم نفسه إلى صورة مجازية، يستطيع من خلالها أن يتعامل مع الواقع في عموميته وخصوصيته، وذاتيته وموضوعيته، وكليته وجزئيته، وتجرده وتعينه(4). كما يشير إلى أن استخدام النماذج مسألة حتمية تعد من صميم عملية الإدراك، لأن الإنسان لا يدرك الواقع بشكل مباشر، وإنما يدركه من خلال وسيط هذا الوسيط هو النموذج(5).

الفرق بين النموذج الإدراكي والمعرفي والتحليلي والتفسيري

يميز المسيري بين أربعة أنواع من النماذج

(1) د.عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية...، مرجع سابق، ص384.

(2) المرجع السابق، ص372.

(3) د.عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، مرجع سابق، ص220.

(4) المرجع السابق، ص28.

(5) د.عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية...، مرجع سابق، ص368.

هي: النموذج الإدراكي، والنموذج المعرفي، والنموذج التحليلي، والنموذج التفسيري. وهي نماذج تختلف من حيث دلالتها إلا أنها تتكامل من حيث وظيفتها، وسنوضح ذلك على النحو التالي:

1) النموذج الإدراكي: يسمى النموذج الإدراكي أيضًا بـ«الخريطة الإدراكية»، وهو نموذج كامن غير واعي، يوجه سلوك الإنسان ويشكل رؤيته للكون من غير أن يعي وجوده. واستخدام النموذج الإدراكي بهذا المعنى هو استخدام حتمي ووظيفته وظيفة فطرية[1]. ويذهب المسيري إلى أن أهم ما في العملية البحثية هو البحث عن النموذج الإدراكي المسيطر على الظاهرة أو النص والكامن فيهما، فمن خلال اكتشاف هذا النموذج يمكن تحوله إلى نموذج تفسيري (واعٍ) وتفسير الظاهرة أو النص من خلاله[2].

2) النموذج المعرفي: يعد النموذج المعرفي هو النموذج الذي يحاول الوصول إلى الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني، وهو يدور حول ثلاثة عناصر معرفية كبرى هي؛ (الإله/ الإنسان/ الطبيعة)[3]. يمكن القول أن لكل نموذج إدراكي بعد معرفي، يحدد مرجعته النهائية ومعتقداته وفروضه ومسلماته، بمعنى آخر النموذج المعرفي يشكِّل البعد الغائي والأساس العميق الذي تُطرح من خلاله الأسئلة الكلية والنهائية للنموذج الإدراكي.

3) النموذج التحليلي: يُستخدم النموذج التحليلي بشكل واع تمامًا، إذ يصوغه الباحث عن وعي لرصد وتحليل الظاهرة، ويتسم هذا النموذج بقدر عال من المنطقية والاتساق الداخلي، وذلك على عكس النموذج الإدراكي اللاواعي الذي يتسم بقدر من التداخل وأحيانًا غياب المنطقية والتناقض، ويمثل النموذج التحليلي التحيزات المعلنة للباحث، التي قد تتطابق مع تحيزاته الكامنة (نموذجه الإدراكي) أو تختلف عنها، لأنه أحيانًا توجد فجوة بين المعلن والمخفي وبين الظاهر والكامن لا يستطيع النموذج التحليلي الوصول إليها وتظل كامنة في النموذج الإدراكي[4].

ولا يشكل النموذج التحليلي قطيعة معرفية مع المناهج العلمية القائمة، فهو يندرج ضمنها، ولا يتعارض مع مسلمات العلم القائمة على الحتمية (أن هناك نظامًا معينًا يحكم الكون)، والاطراد (أن نظام الكون مطرد)، والوصفية (أن معرفتنا لهذا النظام تأتي من خلال الملاحظة والخبرة الحسية) بل يتجاوزها بحيث يذهب إلى توسيع نطاق هذه المسلمات بطريقة تسمح بالتفريق بين النماذج المستخدمة لدراسة

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص 115.

(2) سوزان حرفي (محررًا)، حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري الثقافة والمنهج، مرجع سابق، ص264 – 265.

(3) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية، المجلد الثاني، مرجع سابق، ص445.

(4) صلاح الدين عبد الحليم عبد الله، "حول المصطلح الفلسفي في الموسوعة"، في: أحمد عبد الحليم عطية وآخرون، في عالم عبد الوهاب المسيري:حوار نقدي حضاري، المجلد الأول، مرجع سابق، ص524.

الظواهر الانسانية وتلك المستخدمة لدراسة الظواهر الطبيعية[1].

4) النموذج التفسيري: يقرن المسيري كثيرًا كلمة «التحليلي» بكلمة «التفسيري»، فيقول مثلًا أن «النموذج التحليلي التفسيري ... لا يتضح تمامًا إلا بعد الانتهاء من كتابة البحث»[2]. ويقول أيضًا أن «صياغة النموذج التحليلي التفسيري عملية مركبة وإبداعية تتضمن عمليات عقلية عديدة ومتنوعة ومتناقضة»[3]. كما يقول أن «النموذج التفسيري التحليلي هو النموذج الذي يصوغه باحث ما بشكل واع ليقوم من خلاله بتحليل الظواهر»[4]. ويستنتج من هذه العبارات أنه لا يوجد فارق تقريبًا بين النموذج التحليلي والتفسيري، إلا فارق طفيف يتمثل في أن الثاني ناتج عن الأول، فالتعامل مع الواقع المركب يستوجب تحليله وتفكيكه إلى جزئياته وعناصره أولًا ثم إعادة تركيبه بغرض تفسيره ثانيًا.

السمات التحليلية للنموذج

يستخدم المسيري النموذج كأداة تحليلية بمعنى قريب من المعنى الذي استخدمه عالم الاجتماع جراهام كينولوتش Gr-ham Charles Kinloch في كتابه «النظرية السوسيولوجية: تطورها ونماذجها الرئيسة»، ومن أبرز خصائص النموذج كأداة تحليلية بهذا المعنى الآتي[5]:

- لا يركز النموذج على أعلام المدارس الفكرية كل منهم على حدة، وإنما يركز بالأساس على أطروحاتهم في إطار النموذج المُصاغ.
- تعتمد عملية صياغة النموذج على التجريد المستمر بغرض الوصول إلى الأدوات الأساسية للتفسير وتطويرها.
- التأكيد على الأنماط المتكررة بين أصحاب النظريات والمدارس بغض النظر عن الاختلاف القائم فيما بينهم في التفاصيل والمقدمات.
- التأكيد على فكرة المرجعية أو الأساس المعرفي وتجاوز الاختلافات القائمة في التفاصيل المعلوماتية.
- عدم المبالغة في الاهتمام بأصحاب النظريات والمدارس الهامشية وغير الفاعلة على حساب دراسة النماذج السائدة والمهيمنة.
- يعتمد النموذج على التحليل البنيوي ولا سيما العمليات التحليلية المتمثلة في التجريد والربط والتصنيف.
- يرتبط النموذج بدرجة كبيرة برؤية العالم

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص 115.

(2) د.عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية...، مرجع سابق، ص371.

(3) سوزان حرفي (محررًا)، حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري الثقافة والمنهج، مرجع سابق، ص280.

(4) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص 115.

(5) حجاج على، المقاربة المجازية للحداثة في كتابات عبد الوهاب المسيري وزيجمونت باومان، مرجع سابق، ص 273.

"Worldview"، حيث تساهم عملية بناؤه في التعريف بالعالم الطبيعي والواقع الإنساني.

طريقة صياغة النموذج

يؤكد المسيري على أن صياغة النموذج ليست مجرد عملية آلية موضوعية يرصد فيها العقل الواقع بشكل فوتوغرافي، ولكنها إبداعية إجتهادية تتضمن عمليات عقلية عديدة ومتنوعة، وهي عملية تشمل جانبين هما؛ ذات الباحث، والظاهرة موضوع البحث، فصياغته كما يصفها المسيري تجمع بين «الملاحظة الإمبيريقية واللحظة الحدسية، وبين التراكم المعرفي والقفزة المعرفية، وبين الملاحظة الصارمة والتخيل الرحب، وبين الحياد والتعاطف، والانفصال والاتصال»(1).

وهذا يعني أن عملية بناء النموذج هي نتيجة للتفاعل بين الذات والموضوع، فالنموذج لا يظهر من أعماق الذات، ولا يتم رصده من الواقع كما هو في شكله الخام، ولكن عملية بناؤه تنجم عن الملاحظة المستمرة للواقع ومعايشته والتفاعل معه ودراسته وتجريده ثم اختباره في الواقع باستمرار إلى ما لا نهاية من أجل إثرائه وتوسيعه، وبدون هذه الجدلية القائمة بين الذات والموضوع في عملية بناء النموذج يصبح البحث مجرد توثيق أفقي ممل وتكرار للافتراضات السائدة في حقل ما(2).

لم يجعل المسيري عملية صياغة النموذج مجرد مسألة متضمنة في ثنايا أعماله التطبيقية وتحليله للظواهر، بل قام أيضًا بتجريد النموذج وطريقة صياغته من هذه الأعمال التطبيقية بغرض أن يقدم الجهد النظري في وضوح وصراحة، وقد حدد المسيري خطوات صياغة النموذج وبيّنها كما يلي(3):

صياغة النموذج ليست مجرد عملية آلية موضوعية يرصد فيها العقل الواقع بشكل فوتوغرافي، ولكنها إبداعية إجتهادية تتضمن عمليات عقلية عديدة ومتنوعة

أ – تبدأ عملية صياغة النموذج بضرورة إدراك الباحث أن المعلومات لا تقول شيئًا في ذاتها، وأنها تمثل بداية الإشكالية التي يجب على الباحث أن ينطلق منها ويعمل عقله فيها، هذا العقل ليس مجرد صفحة بيضاء، ولكنه مثقل بالمسلمات والتحيزات والإشكاليات، هذه الأشياء وحدها التي تبقي على مسافة قائمة بين الباحث والظاهرة التي يبحثها وتحول دو سقوطه في التسليم بمقولاتها.

ب – يشكل التفكيك والتركيب جوهر عملية صياغة النموذج، وتفكيك الظاهرة

(1) سوزان حرفي (محررًا)، حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري الثقافة والمنهج، مرجع سابق، ص280–281.

(2) نفس الموضع.

(3) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مرجع سابق، ص126 – 128.

وتركيبها يختلف عن تفكيك النص وتركيبه، فالأولى تتسم بقدر من التناثر، أما الثاني فهو أكثر تبلورًا وتماسكًا.

النماذج التفسيرية الأساسية الثلاثة التي صاغها المسيري، هذه النماذج هي؛ نموذج الجماعة الوظيفية، ونموذج الحلولية الكمونية، ونموذج العلمانية الشاملة

جـ – تبدأ عملية التفكيك بتقسيم الباحث للظاهرة أو النص إلى وحدات منفصلة عن بعضها، ثم يقوم بتجريد هذه الوحدات وعزلها بصورة مؤقتة عن زمانها ومكانها وماديتها المباشرة. وهنا تبدأ عملية الربط على عدة مستويات متلاحقة تتمثل في الآتي:

الربط بين الوحدات التي تم تجريدها، ثم إعادة الربط بينها مرة أخرى لوضعها في مجموعات أكبر.

القيام بتجريد هذه المجموعات وإدخال المتشابه منها في أنماط مستقلة، بحيث توضع هذه المجموعات بما فيها من وحدات وتفاصيل داخل أنماط مختلفة، ويجب على الباحث أن تظل عيناه مركزتين على التفاصيل حتى لا يتوه أثناء عملية التجريد في الكليات ويهمل الجزئيات.

القيام بتجريد الأنماط نفسها من خلال عمليات عقلية استنباطية، يحاول من خلالها إدخال هذه الأنماط في أنماط أكثر تجريدًا. وعند هذا المستوى ستبدأ التفاصيل المتناثرة والعبارات المحايدة تكتسب معنى محددًا، وستبدأ معالم النموذج بالظهور.

يبدأ الباحث في هذه المرحلة في التحرك خارج حدود الظاهرة بعد أن كان يتحرك داخلها طيلة الخطوات السابقة، حيث يبدأ الباحث خلال هذه المرحلة بإجراء مقارنة بين ما توصل إليه من أنماط داخل الظاهرة وما يماثلها من أنماط خارج الظاهرة، بهذا الشكل يربط الباحث الظاهرة بسياقها الخارجي المحيط فترتفع المقدرة التفسيرية والتصنيفية للنموذج.

لا يمكن للباحث أن يتوصل للنمط الأساسي الكامن من خلال تحليل داخلي بنائي محض فقط، بل لابد له من معرفة الأنماط التاريخية والثقافية المحيطة بالظاهرة أو النص والتي تشكل مرجعيتها. ولذا، لابد عند تحليل الباحث للظاهرة ألا يعتمد على لحظة الإدراك المباشرة لها، ولكن يستند إلى الإدراك في صورته الأعمق والأوسع الذي يصل الظاهرة بسياقها المحيطة.

لا تقتصر عملية الرصد في بناء النموذج على معطيات الواقع المادي فقط، بل تنصرف أيضًا إلى الإمكانات غير المادية الكامنة، والتي توجد في الواقع كما يتم تخيله، وكما يتم إدراكه رمزيًا، وبذلك نرصد المحتمل الكامن فيما هو قائم.

وأخيرًا سيبدأ البعد المعرفي الكامن والمحرك لكل هذه الأنماط والوحدات والتفاصيل في

الظهور. وبناء عليه، سيتم ترتيب كافة عناصر المنظومة وفق (هذا البعد) حسب أهميتها ومركزيتها، وستبدأ العلاقات الجوهرية في التجلي والظهور.

ثانيًا: النماذج التفسيرية كحالة تطبيقية عند المسيري (الجماعة الوظيفية - الحلولية الكمونية - العلمانية الشاملة)

بعد التعريف بالنموذج وأهم سماته التحليلية وطريقة صياغته، ننتقل في هذه النقطة لاستعراض النماذج التفسيرية الأساسية الثلاثة التي صاغها المسيري، هذه النماذج هي؛ نموذج الجماعة الوظيفية، ونموذج الحلولية الكمونية، ونموذج العلمانية الشاملة؛ حيث نناقش كل واحد من هذه النماذج على حدة.

إن لكل نموذج من النماذج التفسيرية التي قدمها المسيري مستواه التعميمي ووسياقاته ومجالات فاعليته التي يتحرك داخلها، فعلى سبيل المثال يتفاوت البعد الزمني في النماذج الثلاثة، فهو أكثر وضوحًا في نموذج الجماعة الوظيفية، وأقل وضوحًا في نموذج العلمانية الشاملة، ويكاد يتلاشى هذا البعد في نموذج الحلولية الكمونية.

ويختص كل نموذج من هذه النماذج بحقل من الحقول المعرفية؛ حيث يعد "نموذج الجماعات الوظيفية" أقرب للحقل الأنثروبولوجي الاجتماعي، وله تطور مرحلي يجعله أقرب للحقل السياسي يتمثل في "نموذج الدولة الوظيفية"، هذا بالإضافة إلى "نموذج العلمانية الشاملة" الذي يقترب من الحقل السياسي، وأخيرًا هناك "نموذج الحلولية الكمونية" الذي يعد أقرب للحقلين الفلسفي واللاهوتي[1]. وبرغم ذلك الاختلاف والتنوع القائم بين النماذج إلا أنه توجد مساحة كبيرة للتلاقي والتقاطع؛ حيث تبقى هناك وحدة تنتظم هذه النماذج الثلاثة تتجلى في نموذج تحليلي مركب أكبر، له بعد معرفي واضح تلتقي عنده كل أو معظم النقاط والتفاصيل الأساسية[2]. فالنموذج المعرفي لدى المسيري، كما يؤكد رفيق حبيب «هو تصور نابع من الظاهرة ليفسرها، ثم تتعدد النماذج المعرفية، والتي يمكن إعادة تنظيمها في أطر عامة، ومنها يتكون النموذج المعرفي الأعلى»[3].

وعلى الرغم من التنوع والاختلاف القائم بين هذه النماذج التفسيرية أيضًا في حدود علاقاتها بالظاهرة إلا أنه يصعب الفصل بينها نهائيًا، فهناك اتصال بين كل نموذج والآخر، هذه الاتصال كامن في العمق المعرفي لدى كل منهم، فعلى سبيل المثال يستخدم المسيري النماذج الثلاثة مجتمعة في تفسيره للظاهرة

(1) يوسف زيدان، مفهوم الحلولية تطبيقه في الموسوعة اليهودية، مقال منشور في: موقع يوسف زيدان للتراث والمخطوطات، http://ziedan.com/research/Elyaho2.asp

(2) عبد الوهاب المسيري، دفاعًا عن الإنسان، مرجع سابق، ص343.

(3) د.رفيق حبيب، "نحو إطار معرفي جديد لتفسير الحضارة: قراءة في أبعاد النموذج المعرفي عند المسيري"، في: أحمد عبد الحليم عطية وآخرون، المجلد الأول، مرجع سابق، ص165.

الصهيونية ودولة إسرائيل كظواهر سياسية لها بعد معرفي عميق.

التعريف بالنماذج التفسيرية الثلاثة

سنتطرق فيما يلي بشئ من التفصيل لكل من نموذج الجماعات الوظيفية، ونموذج الحلولية الكمونية، ونموذج العلمانية الشاملة، وذلك على النحو الآتي:

نموذج الجماعات الوظيفية

نعرف في هذه النقطة بالجماعات الوظيفية، والسمات الأساسية التي تتسم بها هذه الجماعات، كما نتطرق إلى المتتالية النماذجية لنموذج الجماعات الوظيفية، وذلك وفقًا لما يلي:

1) تعريف الجماعات الوظيفية

يعد نموذج الجماعات الوظيفية من أوائل النماذج التي طورها المسيري لدراسة أوضاع الجماعات اليهودية في العالم الغربي، ويعرِّف المسيري الجماعات الوظيفية باعتبارها «مجموعات بشرية تستجلبها مجتمعات إنسانية من خارجها، في معظم الأحيان، أو تجندها من بين أعضاء المجتمع أنفسهم من بين الأقليات الإثنية أو الدينية، أو حتى من بعض القرى أو العائلات. ثم يوكل لأعضائها (المجموعات البشرية أو الجماعات الوظيفية) وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها لأسباب مختلفة من بينها رغبة المجتمع في الحفاظ على تراحمه وقداسته، لذا يوكل لبعض الجماعات الوظيفية بعض الوظائف المشينة (الربا – البغاء) أو المتميزة (القضاء – الترجمة – الطب) التي تتطلب الحياد والتعاقدية .. كما أنه قد يوكل لأعضاء الجماعات الوظيفية الوظائف ذات الحساسية الخاص وذات الطابع الأمني (حرس الملك – طبيبه – السفراء – الجواسيس)»[1]. وتتلخص السمات الأساسية للجماعات الوظيفية في الآتي[2]:

(أ) **التعاقدية**: ويقصد بها دخول أعضاء هذه الجماعات في علاقة تعاقدية مع المجتمع المضيف أساسها المنفعة، وهي علاقة برانية ينظر فيها كل طرف إلى الآخر باعتباره موضوعًا مجردًا، ودور يلعب، ووظيفة تؤدى، ومادة نافعة، وأداة تستخدم. لذلك فهي علاقة عقلانية تمامًا لا وجود فيها لأي أسس تراحمية اجتماعية.

(ب) **العزلة والغربة والعجز والارتباط بالنخبة الحاكمة**: بمعنى أنه دائمًا ما توجد مسافة بين أعضاء الجماعة الوظيفية وأفراد المجتمع المضيف، هذه المسافة هي التي تبقيهم خارج الإطار القيمي للمجتمع، وتجعلهم في نظر أفراد المجتمع مجرد كتلة بشرية محايدة، وأداة يمكن استخدامها في أعمال قد لا تلائم قيم المجتمع وتخالف التقاليد الاجتماعية السائدة فيه. ويقابل هذه العزلة من الخارج إحساس بالغربة من الداخل لدى أعضاء هذه

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الأول، **مرجع سابق**، ص 361.

(2) د.عبد الوهاب المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، **مرجع سابق**، ص 41 – 51.

الجماعات، فهو يشعر دائما بانتماؤه لوطن أصلي يشعر بالحنين تجاه، وهذه الإحساس الداخلي بالغربة يزيد من العزلة الخارجية ويجعل مسألة اندماج هذه الجماعات ضمن أفراد المجتمع مسألة صعبة. وتدخل الجماعات الوظيفية في علاقة تحالف مع النخبة الحاكمة أساسها تبادل المنفعة حيث؛ تستغل النخبة الحاكمة الجماعات الوظيفية لتأدية أدوار لا يصلح أعضاء المجتمع الأصليين لتأديتها إما بسبب مخالفتها للقيم المجتمعية السائدة أو خوفًا من الاتصال المباشر بالجماهير الذي يسمح بتغلغل الوجود جماهيري داخل مؤسسات السلطة (كما هو الحال في الوظائف الأمنية الحساسة مثل «حراس الملك وأطباؤه»)، أي أن الجماعات الوظيفية تكون وسيطًا بين النخبة الحاكمة وبين الجماهير، في المقابل تحتاج الجماعات الوظيفية للنخبة الحاكمة لحمايتها نتيجة لكره أفراد المجتمع لها بسبب تأديتها لأدوار تتنافى وقيم المجتمع أو أدوار مميزة تختصهم بها السلطة الحاكمة، وتستنزف بها من خلالهم الجماهير، أي أن الوجود الاجتماعي لهذه الجماعات مشروط بأدائهم لأدوارهم وباحتياج النخبة الحاكمة لتلك الأدوار (التي قد تكون اقتصادية أو عسكرية أو مالية أو تجارية أو أمنية).

(جـ) **الانفصال عن الزمان والمكان والإحساس بالهوية الوهمية:** يشعر أعضاء الجماعات الوظيفية بانتمائهم لوطن أصلي قد يكون موجود فعليًا كما هو الحال مع المهاجرين، وقد يكون مختلق أو وهمي مرجعه اختفاء وحدة سياسية ما في التاريخ والحنين لإرجاعها مرة أخرى، وقد يكون هذا الوطن ممثل في عرق أو إثن أو رابط عائلي. هذا الشعور يعزز من انفصال الجماعة الوظيفية عن محيطها الجغرافي والتاريخي، بحيث لا تفكر في علاقتها بالزمان والمكان والإنسان إلا من خلال هذه الرؤية الطوباوية، فهي تحدد هويتها بناء على هذه الرؤية لا بناء على انتماءها الجغرافي والتاريخي الحقيقي.

الجماعات الوظيفية مجموعات بشرية ثم يوكل لأعضائها وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها لأسباب مختلفة من بينها رغبة المجتمع في الحفاظ على تراحمه وقداسته، لذا يوكل لبعض الجماعات الوظيفية بعض الوظائف المشينة

(د) **ازدواجية المعايير:** يحتكم أعضاء الجماعات الوظيفية لمعايير أخلاقية وقيمية مختلفة عن التي يحتكم إليها أفراد المجتمع المضيف، لذلك فهي تتجاهل الثوابت الأخلاقية للمجتمع المضيف ومحرماته، وتحتكم إلى القيم المادية والنفعية التي تعظم من وجودها، كذلك يحتكم أفراد المجتمع المضيف إلى القيم التراحمية السائدة فيما بينهم والتي يحافظون من خلالها على حرمتهم وقداستهم، في حين يُنظر إلى الجماعات الوظيفية باعتبارها خارج نطاق هذه القداسة، فلا حرمة لهم،

حيث ينظر إليهم المجتمع نظرة محايدة داخل إطار دورهم الوظيفي.

(هـ) الحركية: يتسم أعضاء الجماعات الوظيفية بالحركية حيث لا يرتبطون بالمكان الذي يعيشون فيه، ويشعرون بعدم الانتماء إليه، فهم يجلبون إليه ويطردون منه ببساطة، ونتيجة لذلك فأنهم يعملون في وظائف تتيح لهم الحركة التنقل على الدوام.

نموذج الجماعات الوظيفية هو نموذج أنثروبولوجي اجتماعي، التطور المرحلي لهذا النموذج قد يتحول به من نموذج أنثروبولوجي اجتماعي بسيط إلى نموذج سياسي مركب

(و) التأرجح بين التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع: بمعنى أن أعضاء الجماعات الوظيفية تؤمن بمجموعة من القيم المطلقة التي لا تسري إلا عليهم، وبالتالي فإن تعامله من بقية أفراد المجتمع يقع خارج إطار هذه القيم بالتالي يمكن التصرف بحرية مطلقة دون التقيد بأية محرمات (وهذا هو التمركز حول الذات). وفي نفس الوقت يدرك أعضاء الجماعات الوظيفية أن المجتمع ينظر إليهم فقط في إطار وظيفتهم وعزلتهم، فهم لا ينتمون إلى المجتمع رغم وجودهم بين أفراده، وبالتالي لا وجود لهم إلا من خلال هذه العزلة والاغتراب عن محيطهم الخارجي وتميزهم الوظيفي، وهذا هو التمركز حول الموضوع والمصير المحتوم.

2) المتتالية النماذجية لنموذج الجماعات الوظيفية

يتبين مما سبق أن نموذج الجماعات الوظيفية هو نموذج أنثروبولوجي اجتماعي، إلا أنه ليس كذلك بالمعنى الخالص للكلمة، إذ أن التطور المرحلي (أو «المتتالية النماذجية» كما يسميها المسيري) لهذا النموذج قد يتحول به من نموذج أنثروبولوجي اجتماعي بسيط إلى نموذج سياسي مركب، هذه التطور المرحلي يتمثل فيما سماه المسيري «نموذج الدولة الوظيفية». وسنطرق إلى السمات التحليلية لنموذج الجماعات الوظيفية ونموذج الدولة الوظيفية فيما يلي:

الجماعة الوظيفية كنموذج سوسيولوجي أنثروبولوجي:

يصف المسيري نموذج الجماعات الوظيفية بأنه نموذج قديم/ جديد، حيث استخدمه العلماء الغربيون (كماركس وماكس فيبر) في دراساتهم دون أن يسموه، فهو كامن في خطابهم التحليلي، ولكن بصورة أكثر اختزالاً من الصورة التركيبية التي يطرحها المسيري، حيث(1):

- حصر العلماء الغربيون الجماعات الوظيفية فقط في كل من؛ المهاجرين بانتماءهم الإثني والوظيفي المتميز، والجماعات الإثنية التي تضطلع بدور مالي وتجاري حيوي (كما

(1) المرجع السابق، ص10 – 11.

هو الحال مع المرابين اليهود في العصور الوسطى).

- أهمل العلماء الغربيون دراسة الجماعات الوظيفية التي تضطلع بأدوار غير الأدوار المالية والتجارية، مثل المماليك والخصيان والجواري والبغايا. فالمماليك على سبيل المثال كانوا يضطلعون بأدوار سياسية وعسكرية، والخصيان كانوا يضطلعون بأدوار أمنية.
- أهمل الغربيون أيضًا الجانب غير الاقتصادي كنتيجة طبيعية لاقتصارهم على رصد الجماعات المالية والتجارية فقط، وبالتالي لم يرصدوا الجانب المتعلق برؤية العالم والبعد المعرفي عند الجماعات الوظيفية، وهذا ما تجاوزه المسيري من خلال ربطه نموذج الجماعات الوظيفية بكل من نموذجي العلمانية الشاملة والحلولية الكمونية (كرؤية للعالم).
- يؤكد المسيري على اختزالية النماذج التفسيرية الجزئية (التي نشأت في الغرب كمفهوم الطبقة عند ماركس ومفهوم الجماعة الوسيطة عند ماكس فيبر)، وإهمالها للجوانب الكلية، وقد حاول المسيري تجاوز هذه النماذج، من خلال طرح نموذج أكثر تركيبًا، وأبرز ما يميز هذا النموذج أمران رئيسان[1]: أولهما أن مفهوم «الطبقة» الذي صكه ماركس يتعامل مع تشكيلات اجتماعية كبرى كالعمال والفلاحون والرأسماليون، ولكنه يهمل في ذات الوقت التشكيلات الأصغر كالجماعات الهامشية والأقليات داخل المجتمع، وذلك على عكس مفهوم الجماعات الوظيفية الذي يقدر على النفاذ لهذه الوحدات الأصغر، والتعامل معها لا فقط من خلال جانبها الاقتصادي، بل أيضًا من خلال الجوانب المتعلقة بالثقافة والرؤية والنسق القيمي. والآخر أن مفهوم «الجماعات الوسيطة» الذي صكه ماكس فيبر يقتصر على الجانب المالي والتجاري فقط، في حين يتجاوز مفهوم الجماعات الوظيفية هذه الرؤية الأحادية ليربط بين الجماعة المالية والتجارية وبين غيرها من الجماعات الأخرى كالجماعات السياسية والأمنية والاجتماعية. هذه المرونة التحليلية لنموذج الجماعة الوظيفية تجعله سهل التطويع بحيث يمكن استخدامه لتحليل ظواهر عدة تنتمي لحقول معرفية عدة منها الحقل السياسي.
- يؤكد نموذج الجماعات الوظيفية مفهوم الطبيعة البشرية المركبة ولا يستبعده أو يرده إلى بعد واحد كالبعد الاقتصادي كما هو الحال عند ماركس على سبيل المثال، فالإنسان وفق هذا النموذج مركب يتجاوز الاعتبارات المادية.
- يقتصر النطاق التطبيقي لمفهومي «الطبقة» و«الجماعات الوسيطة» على المنظور الاقتصادي والاجتماعي المباشر، في حين

(1) المرجع السابق، ص12 – 13.

يتسع هذا النطاق في حالة الجماعات الوظيفية ليشمل المنظور السياسي عندما تتطور الجماعة الوظيفية من خلال متتاليتها النماذجية وتتحول إلى دولة وظيفية. كما يتسع نطاق نموذج الجماعات الوظيفية ليشمل المنظور المعرفي العميق، ويصل إلى الرؤية الكونية للجماعة والدولة.

3) الدولة الوظيفية كنموذج سياسي

يتحدث المسيري عن نموذج الدولة الوظيفية باعتباره أحد المتتاليات النماذجية (أو التطور المرحلي) لنموذج الجماعات الوظيفية. فالدولة الوظيفية هي إعادة إنتاج لنمط الجماعة الوظيفية ولكن على مستوى الدولة، وتتخذ الدولة الوظيفية مجموعة من الأشكال المختلفة(1):

تعد الدولة الاستيطانية دولة وظيفية، وهي دولة يتم نقل العنصر السكاني فيها من موطنه الأصلي إلى وطن جديد يقوم فيه بخدمة الدولة الإمبريالية الراعية لعملية النقل والتي أسهمت في التمكين للسكان الجدد وقمع السكان الأصليين، ومن الأمثلة على هذه الدول؛ الإمارات الصليبية في الشام (في العصور الوسطى)، والجيب الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، والبيض في جنوب أفريقيا، والدولة الصهيونية.

الدولة الوظيفية ليس بالضرورة استيطانية، ولكنها يمكن أن تكون دولة صغيرة، وهي عادة ما تكون غنية بالموارد قليلة السكان، حيث يتم رشوة الشعب وإغراقه بالمال، فيرتفع مستوى معيشته ويصبح من صالحه الاستقلال عن محيطه الحضاري والثقافي، هذا الاستقلال ضمانه الوحيد التحالف الدولة الصغيرة مع القوى الخارجية الداعمة لها، ويمكن النظر إلى العلاقة بين تايوان والولايات المتحدة كمثال على ذلك.

يمكن لدولة ما أن تتحول إلى دولة وظيفية، وذلك بتحويل نخبتها الحاكمة إلى جماعة وظيفية تدين بالولاء للدولة الإمبريالية الدعامة لها، فتزداد عزلتها عن المجتمع ويزداد ارتباطها الثقافي والاقصادي وانتماءها الأيديولوجي نحو المركز الإمبريالي.

نموذج الحلولية الكمونية

نوضح في هذه النقطة المقصود بنموذج الحلولية الكمونية، وسماته التحليلية، ومصادره، ومتتاليته النماذجية، وذلك على النحو التالي:

1) تعريف الحلولية الكمونية

يعرف المسيري الحلولية الكمونية باعتبارها النموذج «القائل بأن الإله والعالم (الإنسان والطبيعة) مكون من جوهر واحد، ومن ثم فهو عالم متماسك بشكل عضوي مصمت لا تتخلله أية ثغرات ولا يعرف الانقطاعات ويتسم بالواحدية الصارمة، ويمكن رد كل الظواهر فيه مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها،

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص373.

إلى مبدأ واحد كامن في العالم هو مصدر وحدة الكون وتماسكه ومصدر حياته وحيويته وهو القوة الدافعة له الكامنة فيه، ويمكن تفسير كل شيء من خلاله»[1].

2) الخصائص التحليلية لنموذج الحلولية الكمونية

يظهر من خلال التعريف السابق لهذا النموذج أنه أكثر تجريدًا من نموذج الجماعات الوظيفية، بمعنى أنه أقل ارتباطًا بعنصري الزمان والمكان، وبالتالي فإن دائرته التطبيقية أوسع بكثير، ويمكن لها أن تشمل الكثير من الظواهر في أمكنة وأزمنة متعددة، بالمقابل ونتيجة لهذه العمومية فإن دقة هذا النموذج كنموذج تفسيري للظاهرة السياسية ستكون أقل، باعتبار أنه نموذج عام للغاية من الممكن أن يهمل الكثير من المنحنيات الخاصة للظاهرة التي تتمثل في التفاصيل الزمنية والمكانية المتعلقة بها. وتنبع العمومية والتجريد داخل هذا النموذج من الاتجاه الفلسفي اللاهوتي الغالب عليه، من حيث كونه يتعلق بالعناصر المعرفية الكبرى (الإله/ الإنسان/ الطبيعة)[2]. ولم تمنع عمومية هذا النموذج وتجريديته المسيري من الربط بينه وبين الظواهر الإنسانية في تَعَيُّنَهَا الخاص، ومنها الظاهرة السياسية؛ حيث استخدم نموذج الحلولية الكمونية كأحد النماذج الرئيسة في تحليله للظاهرة الصهيونية.

3) مصادر نموذج الحلولية الكمونية

يؤكد المسيري على أنه لفهم نموذجي الحلولية الكمونية والعلمانية الشاملة لابد من التمييز بين نزعتين أصيلتين في النفس البشرية تعد أولاهما مصدر هذا النموذج في الفكر الإنساني، هاتان النزعتان هما؛ النزعة الجنينية، والنزعة الربانية:

لفهم نموذجي الحلولية الكمونية والعلمانية الشاملة لابد من التمييز بين نزعتين أصيلتين في النفس البشرية تعد أولاهما مصدر هذا النموذج في الفكر الإنساني، هاتان النزعتان هما؛ النزعة الجنينية، والنزعة الربانية

(أ) **النزعة الجنينية**: وهي نزعة (بيولوجية) ترفض جميع الحدود والقيود بين الإنسان وما حوله، بغرض تعظيم القدرة الإنسانية وعدم حدها بأية حد يعوق من تطورها ومن تحكمها الكامل في الكون، بهذه المعنى تُلغى المسافة بين الخالق والمخلوق، والإنسان والطبيعة، والكل والجزء، والفرد والجماعة، حيث يتحول الإنسان إلى كائن لا حدود له، وما أن تتحقق هذه النزعة وتنتفي الحدود وتلغى المسافات حتى يجد الإنسان نفسه جزءًا من كل محيط به يشمله ويحتويه، وبالتالي يخضع لقوانينه، ومن ثم فهو غير قادر على تجاوز محيطه المادي، باعتبار أنه جزء لا

(1) **المرجع السابق**، ص373.

(2) يوسف زيدان، مفهوم الحلولية تطبيقه في الموسوعة اليهودية، مرجع سابق، موقع يوسف زيدان للتراث والمخطوطات، http: / /ziedan.com /research / Elyaho2.asp

إن لنموذج الحلولية الكمونية أيضًا متتاليته النماذجية التي تخرج به من فضاء التجريد والعمومية إلى حيز التجريب والخصوصية، ودور المتتالية النماذجية هنا يكمن في محاولة التغلب على العنصر اللازمني الذي يتسم به

يتجزأ من هذا المحيط[1]. ومن هنا تأتي المفارقة؛ إذ تتحول الرغبة في إزالة الحدود والقيود حول الذات الإنسانية بغرض تعظيم قدرتها، إلى سعي للتخلص من تركيبية الذات الإنسانية وإذابتها في محيطها الطبيعي المادي البسيط.

(ب) النزعة الإنسانية أو الربانية: هي نزعة مقابلة للنزعة الجنينية، تقوم على أساس الرؤية الثنائية التي تميز بين الخالق والمخلوق، والإنسان والطبيعة، والكل والجزء وغيرها من الثنائيات. وهي نزعة ترى أن حرية الإنسان مصدرها تلك المسافة التي تفصل الإنسان عن محيطه الطبيعي الخارجي، تلك المسافة التي تضمن له أن يبقى جزء يتجزأ من محيطه المادي، وهذا يعني أنه لا يخضع لقوانين الطبيعة بشكل حتمي، وبالتالي يصبح قادرًا على تجاوز هذه المحيط المادي باستمرار، وتصبح له قوانينه الخاصة التي تحكم فضاءه الإنساني الرحب[2]. ويتضح مما سبق أن نموذج الحلولية الكمونية ينبع من النزعة الجنينية، فهو نموذج يحل فيه الإله في الإنسان ويحل الإنسان في الطبيعة وتلغى المسافات والحدود والقيود، ويتحول العالم إلى كتلة مادية صماء. ومن الجدير بالذكر أن جاذبية النزعة الجنينية تفوق جاذبية النزعة الإنسانية، فالأولى تعمل من قوانين الجذب الأرضية، أما الثانية فتعمل ضد هذه القوانين[3].

4) المتتالية النماذجية لنموذج الحلولية الكمونية

يكمن دور المتتالية (في أية نموذج) في الحد من الطابع التجريدي الذي يغلب على النموذج، والذي يجعل البعض ينظر إليه أحيانًا باعتباره يتحقق بصورة حتمية وكلية، في حين أنه يتحقق (في واقع الأمر) بصورة احتمالية وجزئية، فكل حالة لها تدرجاتها الخاصة بها. لكل نموذج تفسيري متتاليته النماذجية عند المسيري، فكما أن لنموذج الجماعات الوظيفية متتاليته النماذجية التي تخرج به من إطاره الاجتماعي الأنثروبولوجي البسيط إلى إطار السياسي المركب، فإن لنموذج الحلولية الكمونية أيضًا متتاليته النماذجية التي تخرج به من فضاء التجريد والعمومية إلى حيز التجريب والخصوصية، ودور المتتالية النماذجية هنا يكمن في محاولة التغلب على العنصر اللازمني الذي يتسم به نموذج الحلولية الكمونية. ويؤدي تتالي حلقات نموذج الحلولية الكمونية إلى ظهور «وحدة الوجود» في صيغتين مختلفتين من حيث المظهر، متماثلتان من حيث البنية والجوهر، هاتان الصيغتان هما:

(1) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في الجذور والبذور الثمر، **مرجع سابق**، ص387.

(2) **المرجع السابق**، ص388.

(3) **المرجع السابق**، ص388 – 389.

وحدة الوجود الروحية: تعني أن يحل الإله في مخلوقاته إنسانًا وطبيعةً، بحيث لا يكون له وجود من دونهم، ولا يكون لهم وجود من دونه، بهذا المعنى لا توجد مسافات أو حدود، حيث يمتزج الإله بالإنسان والطبيعة، ويصير الإله مجرد اسمًا، حيث لا وجود له في ذاته، فهو روح هذا العالم المادي الكامنة فيه[1]. وتعد النظرية السياسية الهيجيلية من أبرز الأمثلة على تجلي هذا النموذج، فهيجل يعتبر أن الدولة هي غاية الوجود الإنساني، وهي تجسيد للحياة المثلى للفرد، وهي نهاية التاريخ التي تتحقق فيها وبها الصورة المثلى لوحدة الوجود، حيث يتحد الباطن بالظاهر، والكل بالجزء، والفرد بالجماعة، والإنسان بالدولة، فتتحول الأخلاق والضمير من مجرد عناصر فردية جزئية مفتتة يمارسها الأفراد بشكل تلقائي وبدائي وعشوائي إلى عناصر جمعية كلية منظمة تتجسد في صورة قوانين تفرضها الدولة، فتصبح الدولة بمؤسساتها وأجهزتها هي التجلي الخارجي الظاهر للحياة العقلية والروحية الباطنية للأفراد، ويستخدم هذا النوع من النماذج لغة روحية في التعبير عن الظواهر السياسية كأن يتحدث عن "روح الشعب" و"روح التاريخ" وغيرها من المصطلحات[2].

وحدة الوجود المادية: تختلف وحدة الوجود المادية عن وحدة الوجود الروحية من حيث كونها تستغني تمامًا عن اسم الإله، فيحل الخطاب المادي محل الخطاب الروحي، فالظاهرة ليس لها "روح"، ولكن لها "قوانين مادية" و"قوانين حركة"، ولها "مسار تاريخي حتمي" تفرضه عليها طبيعتها المادية[3]. وهنا أيضًا يختفي الحيز الإنساني، وتسود الواحدية المادية، فالظاهرة الإنسانية كالظاهرة الطبيعية تمامًا كلاهما يخضع لقوانين المادة. ومن أبرز الأمثلة على وحدة الوجود المادية النظرية السياسية الماركسية. يلخص المسيري المتتالية النماذجية لوحدة الوجود المادية في خمسة حلقات متتابعة هي[4]:

يضع الإنسان نفسه مقابل الطبيعة، ويعلن سيادته ومركزيته في الكون، ويصبح بالتالي مرجعية ذاته، ويحاول أن يثبت تفوقه وقدرته على تجاوز محيطه الطبيعي/ المادي باسم الإنسانية المشتركة التي لا تميز بين الإنسان وأخيه الإنسان.

تنغلق المرجعية على الذات الفردية، فيتحول خطابها من خطاب إنساني إلى خطاب عنصري يتحدث عن الذات القومية (الأمة/ العرق/ الإثن) بدلًا من الذات الإنسانية، وتصبح الذات القومية موضع الحلول والقداسة، فتؤله نفسها في مواجهة الطبيعة ومواجهة الآخرين، وتتحول إلى ذات إمبريالية.

(1) **المرجع السابق**، ص 389.

(2) ليو شتراوس، جوزيف كروبسي، تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتي اسبينوزا، **مرجع سابق**، الجزء الثاني، ص373 – 375.

(3) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في الجذور والبذور الثمر، **مرجع سابق**، ص389.

(4) المرجع السابق، ص 390 – 391.

يكتشف الإنسان أن الطبيعة هي الأخرى موضع الحلول، وأن لها حيزها وقوانينها الخاصة التي تحكم حركتها، وبالتالي تنفصل الطبيعة عن الإنسان وتصبح مرجعية ذاتها، ومن هنا تنشأ الثنائية الصلبة التي تقوم مركزين في الكون لكل منهما قانونه الخاص الذي يحكم عالمه هما؛ الإنسان والطبيعة.

بعد ذلك تصبح الطبيعة وحدها هي موضع الحلول، ويختفي الجوهر الإنساني، حيث يذوب الإنسان في محيطه الطبيعي المادي.

في هذه الحلقة تتعدد مراكز الحلول، ويصبح كل شيء مرجعية ذاته، ويختفي المركز، وتسود النسبية المطلقة.

نموذج العلمانية الشاملة

نعرف في هذه النقطة بالمقصود بالعلمانية الشاملة، والخصائص التحليلية لنموذجها، والمتتالية النماذجية لهذا النموذج، وذلك وفق الآتي:

1) تعريف العلمانية الشاملة

يُعرف المسيري العلمانية الشاملة باعتبارها "رؤية شاملة للكون بكافة مستوياته ومجالاته، لاتفصل فقط الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة، وإنما تفصل كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الأمر ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته، إلى أن يتم نزع القداسة تمامًا عن العالم (الإنسان والطبيعة)"(1).

(1) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، **مرجع سابق**، ص472.

2) الخصائص التحليلية لنموذج العلمانية الشاملة

يحتل نموذج العلمانية الشاملة موقعًا وسطًا بين نموذج الجماعات الوظيفية ونموذج الحلولية الكمونية من حيث حيث التجريد؛ إذ يعد نموذج العلمانية الشاملة أكثر تجريدًا من نموذج الجماعات الوظيفية، وبالتالي فهو يشمل مساحة زمنية ومكانية أكبر من المساحة التي يشغلها نموذج الجماعات الوظيفية، كما يعد أقل تجريدًا من نموذج الحلولية الكمونية، لذلك فهو يشمل مساحة زمنية ومكانية أصغر من المساحة التي يشغلها نموذج الحلولية الكمونية.

ويمكن اعتبار أن نموذج العلمانية الشاملة هو أحد تبديات النموذج الحلولي الكموني في العصر الحديث، فالنزعة الحلولية الجنينية داخل الإنسان هي أحد مصادر التحقق العلماني في الواقع، ويقول المسيري في هذا الصدد أن "الأفكار العلمانية كامنة في أي مجتمع على وجه الأرض، فإغراء التفسيريات المادية والنزوع الجنيني الذي يعبر عن نفسه في الرغبة في الاندماج بالخالق، وفي إلغاء كل الحدود والتحكم الكامل في كل شيء، وفي التخلي عن الحدود وعن المسئولية الخُلُقيّة، هو جزء من النزوع العام الموجود في النفس البشرية، وهو نزوع يعبر عن نفسه في النزوع نحو الحلولية الكمونية"(2).

(2) **المرجع السابق**، المجلد الأول، ص22.

ويعد نموذج العلمانية الشاملة النموذج الأقرب للمجال السياسي بين النماذج الأخرى، ففي حين ينصرف نموذج الجماعات الوظيفية للمجالات الاجتماعية والانثروبولوجية، وينصرف نموذج الحلولية الكمونية للمجالات الفلسفية واللاهوتية، يركز نموذج العلمانية الشاملة على المجالات السياسية المتعلقة بالدولة والأجهزة والمؤسسة الحديثة وإدارة المجال العام.

3) المتتالية النماذجية لنموذج العلمانية الشاملة

على عكس ما درج المفكرون والباحثون على تناول ظاهرة العلمانية بوصفها مجرد تعريف ثابت نابع من بنية ذهنية ساكنة، أراد المسيري تناول العلمانية كظاهرة لها تاريخ تتحقق من خلاله، فبدلًا من أن يحدثنا عن نموذج ثابت للعلمانية يحدثنا عن متتالية نماذجية تتحقق عبر الزمان والمكان. تشبه المتتالية النماذجية لنموذج العلمانية الشاملة المتتالية النماذجية لنموذج الحلولية الكمونية، إلا أنها أقل تجريدًا وأكثر تفصيلا[1]. ويمكن إيجازها في المرحلتين الآتيتين[2]:

(أ) **العلمانية الجزئية**: هي مرحلة تشكل فيها العلمانية رؤية جزئية للواقع، لا تتصف بالشمول، ولا تتعامل مع الأبعاد الكلية والنهائية، وهي رؤية تذهب فقط إلى ضرورة فصل الدين عن السياسة والاقتصاد، دون أن يمتد تدخلها في مجالات الحياة الأخرى. وهي رؤية تعترف بالمطلقات الأخلاقية والدينية والإنسانية ولاتنكرها، لذا، فهي تترك للإنسان حيز خاص يتحرك بداخله بعيدًا عن سيطرتها. وتسود هذه الرؤية حينما تتسم الدولة ووسائل الإعلام بالضعف والعجز عن اقتحام جميع مجالات الحياة العامة.

أراد المسيري تناول العلمانية كظاهرة لها تاريخ تتحقق من خلاله، فبدلًا من أن يحدثنا عن نموذج ثابت للعلمانية يحدثنا عن متتالية نماذجية تتحقق عبر الزمان والمكان.

(ب) **العلمانية الشاملة**: هي مرحلة تتسم فيها العلمانية بالرؤية الشاملة التي تصل إلى الأبعاد الكلية والنهائية، وتذهب العلمانية في هذه المرحلة إلى ضرورة فصل القيم الأخلاقية والدينية والإنسانية ليس فقط عن الدولة ولكن عن كل مجالات الحياة الأخرى، وهي رؤية حلولية كمونية ترى أن مركز الكون كامن فيه، وبالتالي لا يوجد ما هو متجاوز للواقع المادي ولا يوجد مقدس. وتسود هذه الرؤية حينما تتزايد قوة الدولة ومؤسساتها (خاصة الإعلامية) بحيث تصبح قادرة على اقتحام جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة. ومن

(1) قارن بين كل من: **المرجع السابق**، ص222 – 231؛ عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية...، **مرجع سابق**، ص 390–391.

(2) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية...، المجلد الأول، **مرجع سابق**، ص220.

لا يعنى اختصاص كل نموذج من النماذج الثلاثة بمستوى معين، أنه يقتصر على هذا المستوى، فهناك مساحة كبيرة للتداخل بين هذه المستويات، تجعل كل نموذج يتبدى على كافة المستويات

الجدير بالذكر أن تحقق هذه المتتالية ليس شرطًا له أن يتم بنفس الطريقة وبذات المقدار، فقد تتحقق المتتالية بصورة جزئية أو بطريقة مختلفة، ويضرب المسيري مثالًا على هذا الأمر بالقول أن المتتالية العلمانية في أوروبا الغربية حدثت أولًا على المستوى الاقتصادي أواخر العصور الوسطى، ثم انتقلت إلى المجال السياسي في القرن السادس عشر، ثم إلى المجال الفلسفي في القرن السابع عشر، ومنه إلى المجال الوجداني والأحلام في القرن التاسع عشر، وانتهت إلى علمنة الحياة الخاصة وسلوك الفرد في القرن العشرين. في حين أن هذه المتتالية تحققت في العالم الثالث على نحو مختلف وبمقادير مختلفة على أيدي الجيوش الستعمارية والدولة المهيمنة على النخب المغتربة. ويلاحظ أيضًا أن المتتالية لا تجبُّ بالضرورة ما يسبقها من حلقات. فبعد أن تسود العلمانية الشاملة تظل هناك دائمًا جيوب مقاومة من ترفض هذه الرؤية الحلولية وتؤمن بالقيم المتجاوزة[1].

الوحدة المعرفية للنماذج التفسيرية الثلاثة

سوف نتناول في هذه النقطة العلاقة المعرفية الكامنة والجامعة بين النماذج التفسيرية الثلاثة السابقة تحت نموذج معرفي واحد، وذلك من خلال الآتي:

أ - الوحدة المعرفية الكامنة بين النماذج التفسيرية الثلاثة:

برغم الاختلاف والتنوع القائم بين النماذج التفسيرية الثلاثة (الجماعات الوظيفية - الحلولية الكمونية - العلمانية الشاملة)، وبرغم أن لكل نموذج حيزه الخاص واستقلاله وآليات عمله التي تميزه عن النموذجين الآخرين، إلا أن لهذه النماذج (جميعها) وحدة معرفية كامنة تجمع بينها، حيث تشترك هذه النماذج في أنها واحدية تنكر التجاوز وتلغي الثنائيات الفضفاضة والحيز الإنساني، ويتبين ذلك من خلال الآتي[2]:

الحلولية الكمونية: هي رؤية للواقع تذهب إلى أن الإله يحل في العالم ويتوحد معه، ومن ثمة فلا مسافة بين الإله والإنسان والطبيعة، فهم يجسدون شيئًا واحدًا، وفي هذه الحالة تختفي ثنائيات (الخالق/ المخلوق) و(الإنسان/ الطبيعة) و(الكل/ الجزء)، وتبقى فقط الواحدية المادية.

العلمانية الشاملة: هي رؤية تذهب إلى أن العالم بداخله ما يكفي لتفسيره، والقوانين التي تسري على الإنسان هي نفسها التي تسري على الطبيعة، ولا حاجة لتجاوز الإنسان واقعه

(1) **المرجع السابق**، ص231 - 232.

(2) عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان، مرجع سابق، ص343-344.

المادي المحيط، وهذا يعني أن مركز هذا الكون ليس مفارقًا له، وبالتالي فلا مسافة بين (الخالق/ المخلوق) و(الإنسان/ الطبيعة)، وهو ما يقضي على الثنائيات.

الجماعات الوظيفية: لا ينظر أعضاء المجتمع المضيف إلى الجماعات الوظيفية نظرة تراحمية في إطار إنسانيتهم المركبة المتعددة الأبعاد، ولكن ينظر إليهم نظرة تعاقدية في إطار واحديتهم الوظيفية البسيطة، فعضو الجماعة الوظيفية هو إنسان يتم اختزاله في بعد واحد هو بعده الوظيفي.

ب - التداخل المعرفي بين النماذج التفسيرية

مما سبق يتضح انطواء هذه النماذج الثلاثة تحت نموذج أكبر ووحدة أساسية كامنة تتمثل في الرؤية الواحدية للعالم؛ حيث تتبدى هذه الواحدية في نموذج الحلولية الكمونية على المستوى الديني والمعرفي، بينما تتبدى في نموذج الجماعات الوظيفية على المستوى الاقتصادي والوظيفي، وتتبدى في نموذج العلمانية الشاملة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

لا يعني اختصاص كل نموذج من النماذج الثلاثة بمستوى معين، أنه يقتصر على هذا المستوى، فهناك مساحة كبيرة للتداخل بين هذه المستويات، تجعل كل نموذج يتبدى على كافة المستويات، كل ما في الأمر أن تبديه يكون بصورة أكثر كثافة على مستوى معين دون المستويات الأخرى، لذلك يحتفظ المسيري بتعدد المستويات واستقلالها ومقدرتها التفسيرية مع تأكيده على الوحدة الكامنة بينها على المستوى المعرفي الأعمق[1].

جـ - الوحدة المعرفية بوصفها وحدة فضفاضة واحتمالية وجزئية وليس بوصفها وحدة صلبة وحتمية وكلية

يجب الإشارة إلى أن النموذج الأكبر الذي تنضوي تحته كافة النماذج التفسيرية لا يتبدى بالطريقة نفسها في كل زمان ومكان وحالة، فالنموذج مثل الإمكانية قد يتحقق أو لا يتحقق، وإن تحقق فهو يتحقق بشكل جزئي وحسب. وهذا يبرهن على أن النموذج مهما بلغ من التركيب سيظل أقل تركيبا من الواقع، وستظل هناك مسافة تفصل بينه وبين الواقع. هذه المسافة تمثل الحيز الإنساني الحر، الذي يجعل يخلق لكل حالة قانونها الخاص، الأمر الذي يجعل النموذج لا يطرد بنفس الطريقة أو يتطور بنفس الأسلوب. لذلك تظل الوحدة الكامنة والجامعة بين النماذج التفسيرية الثلاثة وحدة فضفاضة، يمثل فيها النموذج المعرفي الأكبر مجرد إطار تصوري عام للغاية له قيمة تحليلية وتفسيرية كلية لا تغني عن دراسة كل حالة على حدة بما فيها من تفاصيل وتعرجات ومنحنيات خاصة[2].

(1) المرجع السابق، ص344.

(2) المرجع السابق، ص345.

خاتمة

عرضنا من خلال هذه الدراسة دور النماذج التحليلية في بناء منهاجية تحليل الظاهرة السياسية، حيث تبين أن هناك نوعين من مصادر بناء النموذج المعرفي عند المسيري، يُمثل النوع الأول المصادر غير المباشرة؛ وهي مصادر ذات طبيعة حضارية عامة سابقة على فكر الدكتور المسيري ومحددة له، وتتمثل هذه المصادر تحديدًا في "النموذج المعرفي الغربي" باعتباره النموذج الأكثر شيوعًا وتأثيرًا في الإنتاج المعرفي الحديث والمعاصر، و"النموذج المعرفي الإسلامي" باعتباره النموذج موضع التحيز المعرفي والحضاري للمسيري. ولكل نموذج من هذه النماذج إشكالياته ومداخله الخاصة. ويُمثل النوع الثاني المصادر المباشرة، وهي مصادر ذات طبيعة خاصة وفردية، بمعنى أنها مصادر اختصها الدكتور المسيري بالاهتمام وتفاعل معها فأثرت في فكره وبناؤه النظري بشكل مباشر.

كما تعرفنا على النماذج التحليلية ورصدنا الاختلافات الأساسية والسمات المشتركة بينها وبين التحليل البنيوي والصورة المجازية اللغوية، هذا بالإضافة إلى ذِكر السمات التحليلية التي يتسم به النموذج، وطريقة صياغته وتفاعله مع الواقع. كما استعرضنا النماذج التحليلية والتفسيرية الثلاثة الأساسية عند المسيري كحالة تطبيقية من منظور سياسي، وتطرقنا إلى المتتالية النماذجية لكل واحد من هذه النماذج، كما بيينا الوحدة المعرفية الكامنة خلفها والجامعة بينها.